

محمد نفعاء

كوستان

مجموعۃ قصصية

طبعة اولیٰ

عک ۱۹۱۰

مفرد الطبع محفوظہ

کوشان

الغلاف: سسلی کاغذ

مرتان التقيت بحسن و ابراهيم . وبين المرتين يمتد
زمان حسبنا في البداية سبعة ايام ، فلما مرت قلنا
سبعة شهور ، وانقضت هي الاخرى فتسامحنا وقررنا
اذن ، سبع سنين عجاف ، لكنها مرقت وتركتنا ننتظر ،
حتى صار هذا الزمان يحسب بعقود من الاعوام ، لكنها
تبدو اكثر من ذلك بكثير ، نها ثقل الكابوس والرابوص ،
يجثم على صدورنا في النهار والليل ، في انيظة والمنام ،
يريدنا ان نقف نائمين وننام واقفين ، ونحن نتامل لرحلته
على امل ان نفيق يوما فنجده قد انفق كالدمل وفش كالورم
وانطفأ كالبائون ، كالفتاعة .

ويمتد مكان اقل ما يقال فيه انه بطول محيط بلادنا ،
بلادنا ، بطول مساحتها شبرا شبرا بكل حدودها ودروبها .

ما اطول الليل عندنا !! اها المكان فله ابعاد موعلة
مترامية صحراوية !!

في المرة الاولى كنا اطفالا لا هم دنيا ولا عذاب
اخرة . انا في بلدي ، واذا بالدرب تحمل حسن و ابراهيم
لاجئين مشيا على الايدي والاقدام والبطون من بلد اسمها
اندامون ، وهي غير سجن الدامون القائم حاليا والذي
ازاحها وتعد مكانها .

رايتهما فجأة في البلد ، قدام بيتنا ، طلعا من خيمة
سوداء كعتمة اخر الليل ، نبتت بين يوم ونيلة كما نبتت
الفطر بعد زخم المطر كما توهنا . وهناك انتقينا بين
دار وخيمة ، لنا عمر واحد وطول واحد فتعارفنا . وانا
انيوم اذكرها كما لو ان الزمان لم يقطع قراطا واحدا
طيلة السنين !!

ابراهيم يلبس فستانا اصفر كزهرة الصبر والفراش ،
مهشم الاذبال اهترات جوانبه بعجالة ، وله وجه اسمر رضى
نظيف حتى الانف بالمقارنة مع بقية الاولاد ذوي الوجود المعجفة
المتسخة والذين يدلسون انوفهم بأكامهم .

وحسن يلبس قمبازا من «الكارت» الاغبر فيه دروب
بيضاء وبلا زنار ، ما اصفره من قهباز ، يبدو فيه رجلا
طوله خمسة اشبار ، بشيري القصير الحالي . وله وجه
كدر كماء البركة ، مهموم تماما ، قلما يضحك ، وان
سبق وقلقت بسة هشة فان طبيعة وجهه ترفع استثنافا
مستعجلا لتجميدها وايقافها عند حدها وتروح تذوب
قبل ان تكتمل ، ليظل وجهه مشطوفا كالعليل ، وكلامه
كالصراخ فيه اتهام وندعة على الدوام ، تخرج الحروف
والكلمات متزاحمة مضغوطة بلا تنسيق مسبق بينها .

لعينا شهرا على الزبلية الكائنة قرب دارنا - مما
اعطى البيت موقعا مرموقا - نجد فيها قطع الزجاج الملون
والفخار المطلق ، وقطعا من خيطان المصيص ، واكرار ،
وتشاريب السختيان والنخل النابت بطول الاصبع من نوى
العجوة واحيانا المسامر الصدئة وريش الدجاج الملون وكلها
ثروة نروح نققسمها ، وتنتهي القسمة بضرب الكاميد وتكون
قسمتي من الضرب واللبط والعرش اضعاف نصيبي
من الثروة .

في العراك كنت دائما « اجيء من تحت » والحمد لله
الذي لا يحمده على مكروهه سواه .

نحن معا ، في النهار نكبش الفراش وفي العتمة
نلقط سراج الليل ونضرب حجارة الصوان لتقدح نارنا
تبرقط شهباء صغيرة متطاولة ويضج المكان بدق الحجارة
كحومة من الضفادع الناقطة المغنية ويصرخ الناس من البيوت :

- تخيب انت واياه دم يطرش من حلقك !!

- سطلتونا يا عفاريت !! انقلعوا من قبالي !! طق طق !!

فننقلع ويخيم الهدوء على المكان وتروح نمنصب الى
كلاب القرية ، وبحكم الضرورة نعرف كل كلاب البلدة ،
نعرف الكلب الندر فننتحاشاه ولا نمسرق من طريقه لانه يبدأ
يعوي بلا سبب ويدغر عابسا ونحن لا نحكيه ولا نشاكيه ،
نخلف الكلاب مع بعضها فتتهاوش وتتعارش وتتقلب على
بعضها اكواما متحركة وتنبع نباحا مخيفا متواصلا .

وعندما كان اللعب في القمة ، في احدى لحظاته ونحن
نشتم ونسب ام من يبطل من اللعب ، تابع حسن وابراهيم
هجرتهما الى اماكن مجهولة بعيدة وراء الجبال التي تضرب
طوقا واسعا عاليا حول البلاد ولا نعرف ما وراءها .

صار اللعب لا يطاق ، وافتقدنا حسن وابراهيم ، كانا
يهجمان على اللعب :

- يا خريبة يا لعيبه !! فنفسح لهما مكانا صاغرين .

وبقيت سنوات لا ارى في الجبال الا انها غيبت وراءها
حسن وابراهيم ينتعف الثلج على العالم وتروح الجبال تفقد
لونها شيئا فشيئا حتى تصبح عبارة عن مدرجات بيضاء
تطل منها تعرجات ذات خضرة داكنة ، واشجار انغابة
تحني رؤوسها باستسلام وزفيرها السحيق المتخبط يهدر
هديرا خافتا وانا انصت على هدير العاصف يحمل في طياته
وقع خطوات ، صوتا ، نداء منهما .

تذوب الثلجة وتمسح بطون الجبال مسحا وترتعش
السيول والاوذية وتظل تزغرد اياما مبقبة متلعثمة ، ويزهر
الشيخ ويرشم بلونه الاصفر احزمة وعرية رخوة مهترئة

كالفستان ، ويتخايل الانسق الناري ، والنجوم السيارة
المنفلتة وصدى الليل ، فأحس بهما في قلب الاشياء جميعا .
لكن ثقل السنين يكاد يخلق كل شيء لولا ما حدث :

كالعادة انا لا املك سيارة ، ولا اجرؤ على التفكير
بذلك ، لاني لا اتناول على القطوف الحامضة . والمواصلات
الى البلد متعسرة جدا ، وانشارع موحش ، مصاب بعسر
الهضم والامساك خاصة في الليل ، والنقود قليلة هي
الاخرى بشكل يبعث على الدهشة والكفر المتين من الوزن
الثقل ، لذا اعود الى القرية مشيا على الاقدام ، مكره
اخاك لا بطل .

بعد يوم عمل كالح متحجر ، تراني على الدرب في
غياب الشمس ، ورأس المغرب ، ومنتصف الليل ، وحيانا
وجه النهار اتعلق على الصعود القاسي الارعن ،
واتطلع الى المستوطنة الجديدة القائمة على الارض الحرام
تشع انوارها وتمتد طرقاتها كالامعاء المتشابكة المعقودة
لم اصادف في الطريق اشياء ذات بال ، مع اني اتضابق من
الوحشة ومن الصخور الهائلة التي تظل تنظر الى الامام
ببلاهة وتفتح اشداقا معوجة مغمورة في البطن الصخري
المعتم ، واشتمم والعن كل ما تسول له نفسه ان يتسبب في
أدنى ضجة فوق أو تحت او على الطريق من الوحوش
الصغيرة السارحة واعتبر ذلك استفزازا دمويا سافرا
واقنع نفسي بأنه قطع علي حبل افكاري .. والله اعلم .

نعم لم يحدث شيء خارق ، ها انا في فتلة معتمة واذا
الحزام الصخري يعكس ضوء سيارة راح يتذبذب ويرتج .
وفعلا اطلت سيارة تنهادى وتسن انينا محببا ناعما ، هيات
نفسى ورفعت يدي بشكل مهذب راجيا الوقوف . اقتربت
السيارة وعليها شارة تدل على ان سائقها طبيب ، فحمدت
الله واتيت عليه سلفا . لكن ماذا ؟ يبدو اني تعجلت في
دفع هذه السلفة من الحمد والثناء لان السيارة مرت

كلمح البصر وزادت من سرعتها ، فناونت أم صاحبها عن
كئيب شتية واقفة من على موجات اثير .

— « يمكن حسبني فدائي » !! اقنعت نفسي .

كان بالامكان اهمال هذه التفاصيل لولا انها بداية
نقائي الثاني بأبراهيم :

انا في القرية ، واذا بالجبال والدروب التي حملت
ابراهيم لاجئا تكفر عن نفسها قليلا وتعيده فدائيا او
« مخربا » او مسلحا حسب الذوق والقدرة ، حيث
قبض عليه بعد ان قام بعمل ما ، وهو اليوم في اسجن ،
ويتعرف على واحد من بلدي ويخبره :

جئت مع مجموعة من الرجال انى الوطن ، مذللين
طوق المراقبة الرهيب . بقينا اياما في الجبال ، في اماكن
مجهوله تحت الشجر اللثف ، في بطون الاودية والكهوف
نختلط بالضباب والليل والشمس ، راينا الناس
ولم يرونا ، سمعنا الاصوات في البيوت ، بيننا وبين
تلك الامكنة وحده حال ، الفة ، معرفة قديمة اصيلة
وفي الحال عشقت كل شيء فيها ، الحجارة وغناء
الاعراس ، ورياح الاودية الناعمة الباردة ، انقلبت انى
انسان اخر ، انت لا تستطيع ان تفهم ذلك كما يجب ،
اريد ان اقف ، ان ابقى ، ان اقضي عمرا بكامله اتحسس
دفع الاشياء ، اعب من الهواء قدرا كبيرا ، اتحسس
هؤلاء الناس ، اعيش حياتهم كل يوم ، يلهب وجهي لفح
انفاسهم في الارض ، اتمس الايدي تنازل الحجارة في
الحقل الشذي ، فتتقيا نفسي نتن العيش في طابور
الفوت والتموين ، ومرت امام مخيلتي خشونة العمال
المقدسة واباء العاملات بملابس العمل ، صرت اشتم
انفاسهم في دفقات الدخان المتصاعد من الورش والالات ،
دهمني كل ذلك في ومضة فكر كالضوء ، نكن تبعها قصف

داخلي في ذاتي ، كنت اهتز وارتح وأغلي ، قلبي يهدر ويتذبذب ، انها المرة الاولى التي اتعمد فيها في شبابي خفت أن يفلت قلبي من مكانه ويهوي . كانت الارض معتمة مجللة ، وقد ابتلعت بشوق ونهم خبط اقدمنا الفوضوي وتركناها تترد في داخلها بترجيع عميق . مشينا ردها صامتين ، كل واحد منا يتحدث مع نفسه ويناجي ما حوله ، والذكريات تفيض بجلبة وصخب كأرواح الموتى في منازل الاموات الاسطورية . نسمع كل شيء ، كل صوت نحس بقربنا من الارض ، لكن تنقص الحياة ، ينقص الدفء والحرارة والحقيقة الكاملة ، ويبدو كل ذلك على وجوهنا المتجهة الواجمة . كنا نتخاطب بالإشارة نحن والاشياء ، بلغة واضحة حية . ورحنا نعاين انقري المهذمة التربة اليابسة الموحشة . كانت وحيدة تعيش مع نفسها وماضيها وبقاياها كالعجوز ، فيها هزال مخيف وجهها خرب صاحب مريض ، وخفق عميق في قلبها . واجهتنا بكليتها ، لم نعرف ، هل نحن نتطلع اليها او هي وحجارتها ترنو الينا بتثبث عظيم ، احسنا احساسا غريبا وهميا ، فحركة الاشياء الداخلية تكاد ترى بالعين المجردة وكأنها نثرت ماضيها دفعة واحدة قبالة الشمس والهواء ، كمن تشكو وتحنج وتستنفر الهمم ، لا اتدر أن اشرح لك ذلك تماما .

انت تنظر الى الساعة ، لا وقت لديك ، وانا اطلت لكن كل هذا حدث يومها بسرعة هائلة لا تقاس بدقات الساعة ، دهم هكذا دفعة واحدة واليوم احس بثقله ، له وزن قاصم دائم الحركة ، هو ليس كالحديد والحجارة ، انا لا اعرف ان كان للضمير او للامل ثقل ، وكيف يقاس ولكن شيئا يضغط من الداخل ، من كل الجهات والزوايا ، صارت ذاتي عبارة عن غصة وحمل ، شرقت بألمي كما يبدو ففاض ، كما تشرق الارض بماء المطر فيفيض .

كبرت في لحظة واحدة وتقويت حتى الطيش والجنون اضعاف اضعاف كل السنين الماضية ، وتحول كل ذلك

الى دافع جبار الى سوط ظالم لا يرحم عنيد من اجل ان أتقدم أكثر وأقطع بقية الطريق ، فنحن ومجموعة اخرى على موعد الليلة ، وفي هذه اللحظة بالذات مررنا ببلدكم ، وانا اذكر منها نتفا مقطعة ممزقة منذ طفولتي التي حملوها احمالا تعجز عن حملها الجبال ، لكن لفولتي حملتها حقاً ، وقد غاب عنها الرغبة والبيت والملاعب ، في هذه اللحظة بالذات وصلنا الى الطريق المعبد الضيق ، والليل دامس بما فيه الكفاية ، لا احد في السرب الا نحن وصوت الريح المتلاطم ، ومن البيوت البعيدة تسمع اصوات مهشمة يودها الليل ، راميا اياها في احساننا اليقظ المرهف ، طفل يبكي ، سعال ، وامور مألوفة دارجة وكلها كالمطرقة تطرق على باب ذكرياتي فيخلع بقسوة . وبشكل غير متوقع نسمع رنين خطوات تقترب من جوف الليل ، لها رهبة تجعلك تطلع ريقك في الحال ، عندما تصبح للاشياء مقاييس ومعايير اخرى مختلفه ، والخطوط تقترب ببطء وتضيع في الفجاج الليلي الحالك . احدهم اخذ يترنم بأغنية ، نسمع دندنة تروح وتجيء في مد وجزر تخرج من الريح والضباب والوعر . صار الشبح في متناول اليد ، ونحن نلبد في جب قرب الطريق ، هو يمشي على مهله ، ونحن احر من الحجر ، الواجب يغلي ويتلاطم كالبحر الهائج الصاخب المغبر المطرطش رذاذا وزيدا غاضبا ماحقاً مجنوناً . وقف الشبح تماما ، تراه قد احس بشيء ، ادار نظره الى كل الجهات ، يخاطب الاشياء في الارض والسماء بصت النجوم الغائره واجنحت وقلبي يخفق بجنون ، هسهست الاوراق بلطف ، ومسحت نسمة باردة حرارة صدغي ، وهو يقف قربنا ، على بعد قمتين ، من هنا بالضبط ، حيث يقف هو ، نريد ان نمر .

وفي هذه اللحظة ، على قناة الماء المحفورة حديثاً ، فترابها لم يجف بعد ومنه انبعثت رطوبة عطنة مضمخة باردة ، وقف يرشق العالم بنظرات حاملة كالعاشق ،

أستطيع أن أصفه لك ، اسمه ... لعينا على المزبلة باب
بينهم ، جمعنا الزجاج الملون ، لعينا الكلاب وعذباها .

لكن يجب أن نمضي ، يجب أن نضع حدا لتصرفه ،
مرة أخرى ثم أفرض البطء والتمهل ، تحرك هو الآخر ،
وفي اللحظة نفسها التي رحلت المس البندقية اننا
كان حملا ثقيلًا كالجبل زاح عن صدري ، تنفست بعمق ،
ترك المكان بسرعة وكأنه يقصد ذلك ، ووجدت نفسي
أتابع مشيته وهو يقطع الطريق . هو الوحيد الذي عرفته
يوما ما ، كانت أمي ان يفعل ذلك ، حتى لا أقطع علاقتي
الطفولية بهذا المكان ، أحسست انه معنا ، شاركنا الانتظار
درس الطريق معنا ، وحيث يقف هو ، هذا هو السبيل الى
الهدف المنشود .

نعم شعور غريب ، وقف حيث يجب ان نمر وتركنا
في الوقت المناسب ، كان أسرع من البندقية لانه هو ، ولانها
معي ، كان أقوى منها ، تغلب عليها وساهمنا نحن الاثنين
في ذلك .

— لانه واحد منكم بالضبط !!
قال ابن قريتي لابراهيم بحماس .

وسكت ابراهيم ابن الدامون وسرح بنظرة خارج
جدران سجن الدامون كما علمت ، وبنفس اللهجة راح
هذا الشاب يحدثني عن لقائه بابراهيم في نفس المكان من
الطريق محاولا ان يعيد ما سمعه وانا اكمل المعلومات ،
وابن بلدي متأكد اني انا المقصود !!
— أنت وحدك تظل على الدروب في الليل !!

لم أطق هذه الكلمات تبقى في صدري ، تبقى ملكي ،
بل راحت تتحفز وتتدافع للخروج ، فاكثرت من الكلام حول
الموضوع حتى عرفت به .

ويتنفس بأطمئنان وارتياح ، بيت شيئا للعالم ، يشكو
ويترقب ، يحب ان يملك منه المكان فيزرعه انفاسا اثبت . لو
وجدناه في مكان آخر وفي ظروف أخرى لفكرنا بغير ذلك .
صار كمن يعترض طريقنا ، عقبة ، مانعا ، والعملية يجب ان
تتم في الوقت المحدد .

ونظرت الى البندقية في الليل ، أحسستها فقط ،
عرفت سحنتها ، أحيانا أداعبها واحتضنها كشيء محبب
عزيز ، رفيق درب ، أما الان في هذا الظرف فهي شيء
ثانوي ، لا حاجة لها ، ولكن أن وجدت فلا بد منها ، وها
هي جاهزة جامدة . وكدرني ذلك ، صماء لا يعينها من
الإمر شيء ، وأنا أمقت الآلة من هذه الزاوية ، حركتها
فاستجابت ، انها سريعة النهوض ، تستعد ببلاهة وتظهر
قبولا ، رفعت يدي عن جسمها فعادت الى جمودها ، ظلمت
يدي تربت على بطنها ، وأنا أعرف ردها على كل حركة
سترتفع بتناقل وتدير فمها المفتوح الى الطريق ، الى ذلك
الذي يقف بصلف . سترتج بعض الشيء وتخرج ما فيها من
حقن ، تعطي عطسة شنيعة مرعبة ، لاسمع شيئا يطرطش
طرشا واسمع ترجيع النار في الأبعاد كارا متدحرجا ، وفي
الوقت نفسه يخفق شيء في داخلي ، يتحرك ، يتذبذب
بسرعه فضائيه ، ثم اسمع صوتا ، لكنه ، أنة ، تمزقا ،
ولحظه ناطقه جوفاء . وهمود مريع

ظلمت الاصوات تتوارد من القرية كالانكار ، حولت
نظري عن البندقية ، ثم أعدته . أما هو ، الشبح ، ابن
قريبكم ، فيقف مترنما وقد باعد قليلا ما بين رجليه ،
يقف على راحته ، يواجه الجبل حيث يجب ان نكون بعد
دقائق وكأنه يرسم في الليل صورة انسان ما عزيز ، لم يبق
الا ان نضع حدا لندخله ورحلت افعل ذلك بحركات بطيئه
مقبتة بلا احساس لان ذكريات الطفولة واجهتني كالطود
في هذه القرية ، تطرت ذاكرتي ، ذكرت طفلا ،

استطيع أن أصفه لك ، اسمه ... لعينا على المزيلة باب
بينهم ، جمعنا الزجاج الملون ، لعينا الكلاب وعذبناها .

لكن يجب أن نمضي ، يجب أن نضع حدا لتصرفه ،
مرة أخرى ثم أفرض البطء والتمهل ، تحرك هو الآخر ،
وفي اللحظة نفسها التي رحت المس البندقية اثناء
كأن حملا ثقيلًا كالجبل زاح عن صدري ، تنفست بعمق ،
ترك المكان بسرعة وكأنه يقصد ذلك ، ووجدت نفسي
أتابع مشيته وهو يقطع الطريق . هو الوحيد الذي عرفته
يوما ما ، كانت أمنيته أن يفعل ذلك ، حتى لا اقطع علاقتي
الطفولية بهذا المكان ، أحسست أنه معنا ، شاركنا الانتظار
درس الطريق معنا ، وحيث يقف هو ، هذا هو السبيل إلى
الهدف المنشود .

نعم شعور غريب ، وقف حيث يجب أن نمر وتركنا
في الوقت المناسب ، كان أسرع من البندقية لأنه هو ، ولأنها
معي ، كان أقوى منها ، تغلب عليها وساهمنا نحن الاثنين
في ذلك .

— لأنه واحد منكم بالضبط !!

قال ابن قريتي لبراهيم بحماس .

وسكت ابراهيم ابن الدامون وسرح بنظرة خارج
جدران سجن الدامون كما علمت ، وبنفس اللهجة راح
هذا الشاب يحدثني عن لقائه بابراهيم في نفس المكان من
الطريق محاولا أن يعيد ما سمعه وأنا اكمل المعلومات ،
وابن بلدي متأكد اني انا المقصود !!

— أنت وحدك تظل على الدروب في الليل !!

لم أطق هذه الكلمات تبقى في صدري ، تبقى ملكي ،
بل راحت تتحفظ وتتدافع للخروج ، فاكثرت من الكلام حول
الموضوع حتى عرفت به .

واليوم وجدت نفسي في لقاء منظم رسمي ، ثم
تهلل وساده جو الفوضى ، كنا في قرية قلما يذكر
اسمها ، عادية جدا ببيوتها ودروبها واهلها ، صخرية
يابسة ، يلعب في أجوائها الغبار وفي طرقاتها وازقتها
التراب ، رجالها من عمال البناء ، أيديهم ناشفة كالجد
اليابس ، قلما يطلقون ذقونهم .

انا لا اعرف هذا الخليط من اناس ، نعرف
بعضنا لان دمننا يرشق على بعضه كما يقال ، نعرف
بعضنا بالواجب ، بالانتماء أكثر من الاسماء ، لنا اسم
واحد ، وكنية واحدة ، لا نهتم بالتفاصيل الاخرى كتلك
المسجلة على بطاقة الهوية مثلا ، فيها الطول ولون العينين
والشعر ، وعلى الغالب تكون الخاتمة المخصصة للولاد
حتى سن ال ١٨ سنة معبأة جدا لدينا ، أغزر واكثف مكان
في بطاقة الهوية ، تأخذ صفحتين كاملتين ، تصبح الهوية
كلها سجلا للولاد ، بينما ظلت الخاتمة التي تقول تاريخ
« الصعود » بمعنى الهجره الى هذه البلاد ، ظلت فارغه
من الأرقام ، كما يبدو لان الوطن الذي ولدنا فيه ونحن اهل
وسكانه أعلى بكثير من كل دوائر تسجيل السكان الموجودة
في البلاد ، لذلك ظلت الخاتمة تنظر الى تحت .

وهكذا رحنا نخوض غمار الحديث ، نشرق ونغرب
نقبل ونشمل ، عن القضية ، عن الهوية ، فعليها يدور كل
الحديث ، فهي كالخبز لا تفقد رونقها ولا طعمها ، ندور في
فلكما دائما ، وكل حديث عن كل شيء ينتهي ويتصل
بالقضية ، كل يوم نسمع ونقول ، تتغير تعابير الوجوه
وتغلي من انداخل ، تغلي قبضاتنا ، صارت عادة فينا ، نطرح
القضية بشكل متواصل بلا توقف .

راح كل واحد من المجموعة يصفي بطريقته الخاصة
وانا احكي بشكل تمثيلي اعجبي . ومن بين الجميع ، هو
وحده يصفي بانتباه عجيب الى حديثي والى نفسه ، ينقل

نظره بين الاتنين ، لا يريدني ان اتنفس ، ان اتوقف ، وعلى ذكر ابراهيم يرتد نظره على وجهي ، يطلب من الكلمه ان تتجسد في شخص ، ووجهه يحتقن ، تتلاعب عليه الذكرى كما تتلاعب اشعة الشمس على وجه الحقل المذهب ، وانا اتكلم عن انفستان بلون زهر الصبر ، عن حادثة البندقية ، وسجن الدامون ، عن حسن والزجاج الملون .

وراح هو يعاين المكان المقصود ، يدور متمايلا كدوار الشمس ، صار الحديث له وحده ، احس بقية الشبان احساسا غريبا ، وهو ينظر في وجهي بشكل فظ مريع ظل جاسا في مكانه بعيدا عني ، لكن وجهه يقترب مني ويحرك كتفيه كمن يزيح حملا ، او يجهز نفسه لحمل ثقل جديد ، الاخرون ينتظرون ، شعروا ببعض الغربة ، ظل هو وانا نتكلم ونصفي ، نضع الفواصل والنقاط ونتخطاها ، ونرسم علامات استفهام من نوع جديد ، ناولني شيئا بيد مرتجفة .

- بطاظة هوية !! كوشان !! ماذا ؟

انا ح

- انت حسن !!

قرات . لفظنا اسمه في وقت واحد .

الصفحات المخصصة للاولاد معبأة جيدا . ضحكنا .

- وهي حيلى !!

- من !! اه !! تقصد

لأننا نحب الارض

العالم ، المنطقة ، الارض والجبال والسهول كلها
حيلى ، وستلد مولودا جديدا .

يبدو ان الورقة التي سأحدثكم عنها بعد قليل كانت تقبع في حقيبة موزع البريد كغيرها من الاوراق التي تنتظر دورها . ونحن هنا من مطلع الصبح ، فالايام ربيع ، واشعة الشمس الفضية تنسكب على قمم الجبال وتدخل من انوافذ المفتوحة وانت لا تزال تشعر بحاجة الى النوم او البقاء في الفراش صاحيا ، ولكن الحقل يتطلب غير ذلك ، وابي يسبق الفجر في النهوض .

في الطريق كان كل شيء في القرية قد استيقظ ، بل ان الجمال المحملة بالقش كانت راجعة من الحقول اتي البيادر لتفرغ حمولتها وتعود . والدجاج والحمام يلتقط الحب الساقط على الطريق او يفتش عنه جاهدا في روث البقر والجمال . وابي الذي يسير امامنا بخطوات واسعة ينظر الى كل الحقول المحيطة وكأنه مسؤول عن حصادها : الشعير هنا قصير ، كانت الارض موحله وقت الزرع ، والبيادر هناك دليل ، نظر من فوق السياج واستطرد : لا . . . اليه جرفت الارض ! ! ولانه ينظرهنا وهناك كان يحيد عن الطريق احيانا ويصطدم باغصان اللوز والزيتون المزروع عند اسوار الارض من جهتي الطريق فيتساقط حب الندى على وجهي وانا اسير وراءه بالضبط محاولا وضع قدمي محل قدميه فينتبه قليلا ويهمهم ولكنه يعود ليقع في نفس الورطه من جديد الى ان وصلنا الحقل . وقصد الى شوكة السويد الكبيرة التي عمل منها سدة للارض فازاحها بسرعة ودخلنا . وتطايرت العصافير من شجرات الزيتون وسط الحقل لتحط في مكان اخر ، فنظر الي اخي الذي حاذاني في السير نظرة ذات معنى وهو ينظر الى الطيور بتحسر ، لكن الامر جدي اكثر مما يتصور ، وها

ابي يخلع سترته في الحال وامي تضع الزوادة ودلو الماء
تحت التينة و . . بدأ العمل .

— انهر العنزات على الحصيد وتعال !

وتفرقت الجديان والماعز في الارض المحصودة وراعنا
تفتش عن الاعشاب الخضراء وسنايل القمح . والحقل يمتد
امانا اصفر واسعا وقد احنت السنايل رؤوسها جهة
الشرق . كان القش رطبا طريا لا يتكسر بسهولة ، ولكن
ما ان تقدم النهار وازداد شعاع الشمس دفئا وتوهجا
حتى جفت السنايل وهبت عليها نسيمات الهواء فتموجت
وسمعت لها خشخشة . وراحت الفراشات الملونة تطير فوق
السنايل بهدوء او تحط على نبات العنت الذي يرتفع فوق
القمح بازهاره الزرقاء وتحرك اجنتها ببطء . واخي الاصغر
مني يلاحقها بنظره ويتذرع بكل حجة ليلتفت ويمشي هنا
وهناك ليتخلص من العمل الشاق ، ويشكو من تراكم الدروس
والاعمال البيتية لهذه العطلة القصيرة التي لا يعرف كيف
تسر . وعندما يجد متسعا من الوقت ويوقن ان واندنا
منهمك في العمل وصوت منجله هو كل ما يسمع يدني
راسه مني ليقول : ان ابي يستغلنا ايام العطل المدرسية
ويتخذ مني مثلا للرد على احتجاجات صقر — وهو اسم
اخي — التي هي في صالحنا نحن الاثنين ويتهمني بالخنوع
لابي فاعمل طول النهار الى جانبه ولذلك فانا لا ابرز في
الدروس مثله .

بالنسبة لي وانا ابن الثالثة عشرة واكبره بثلاث
سنوات الامر يختلف . . فانا اجد لذة كبيرة للعمل في
الحقل بجانب ابي وامي اللذين كانا في اواسط العمر ،
كنت اقضي الساعات الطوال بين اشجار الزيتون الخضراء
واشجار العنب المعلقة انسي تتدلى منها القطوف غير
الناضجة ، اسمع الى الصغار والعنادل تفرد فيمتلئ قنبي
بهجة . ومع اني اعارض اخي في وجهة نظره الا

اني اكن له في نفس الوقت حبا جارفا ولا اطيق الابتعاد
عنه . كانت بعض رؤوس الماعز والنعيم السائرة على الطريق
تطل برؤوسها فوق السياج وتثغو بلطف وهي تنظر الى
الحقل الشمسي والاعشاب المخضرة وماشتنا التي ترتع
سعيده لكن السياج القوي الشائك يجعلها تتابع
الطريق متحسرة ، اما ماشيتنا فلا تكلف نفسها الا ان تلقي
نظرات خاطفة لتسرى من النادي وتروح ترعى من جديد .

وعندما اقترح صقر طريقه جديد في الحصاد ثارت
الدوائر في الحقل الاصفر ، وشجعني صمت ابي
وعدم اعتراضه فرحنت اشاركه في عمله . ووجدت
حجة ابي بسيطة ومقنعة في نفس الوقت ، قال يرد على
اعتراض ابي : المهم ان يحصدوا هنا او هناك ما الفرق !!
والسنبلة التي يقلعونها لا تعود وتنفرس في الارض من
جديد . المطلوب هو ان يحصدوا . واكتفت هي بان قالت :
هذه اعمال شيطانية وانت عودتهم عليها . وانتهى النقاش
وابتعدنا نحن اكثر فأكثر نعمل الدروب في الحقل .

ولانا نعمل بنشاط والجميع يشهدون لنا خاصة ابي
فقد شعرنا بالتعب ونحن عائدین الى القرية ، وانا
شخصيا احسست بالجوع ، فان وجبة واحدة من الطعام
عند الظهر لا تكفي في يوم شاق طويل من ايام حزيران ،
لكن عادة الناس في القرية ان يأكلوا مرة واحدة في الحقل .

اوشكت الشمس ان تغرب وراء انجبال العالية عندما
وصلنا القرية ، وصخب الناس والحياة عند الغروب
تماما كما في الصباح ، كانت قوافل من اناس ومعهم
الحيوانات تسير في الطريق والاولاد الصغار ينتظرون امهاتهم
اللواتي قضين النهار في الحقل ، وما ان تصل واحدة منهن
الى مدخل القرية حتى يأخذ احد الاولاد بأذيالها او يجبرها ان
تحمله على صدرها الى البيت ويحتج على غيابها طول
النهار وتبدأ هي تسوي من هدامه وتنظف وجهه بيدها .

دخل موزع انبريد وكأنه معنا على موعد وناول ابي مغلفا
وطلب منه ان يوقع اسمه على ورقة . وانا اشعر باهميتي
كلما وصلت الينا رسالة ، يناونني اياها ابي ويرهف السمع
وانا اقرا فضضت الرسالة ورحت اقرا :

«نحيطكم علما بان دائرة تسوية الاراضي وجدت
ان قطعة الارض التي في حوزتكم هي ملك للدولة لانها كانت في
السابق احراشا تابعة للدولة ، ويعتبر الامر ساري المفعول من
تاريخ استلامكم هذا الاشعار ، وكل مخالفه تعرضكم للعتوبة

ملاحظة : يمكنكم المراجعة خلال شهرين من تاريخ الاستلام

كنت اتوقع من والدي ان يبدي اهتماما اكثر بالموضوع
وندمت على الصوت الجهوري والطريقة الخطابية في قراءة
الرسالة المكتوبة بخط واضح ونغمة عربية . واظن اني انكشيت
قليلا وانا اتحمل نظره ابي الساخرة .

— حسنا سنتعلم كار الشحادة كما يريدون !!

وراح ابي يفكر بصمت ، لكن بعض الناس بدأوا يتوافدون
الى بيتنا مهرونين في ملابس النوم فارعين دارعين يحملون
الاوراق الساخنة في ايديهم بعضهم يشتم وبعضهم يقهقه
واخر يطلق كلمات رصينه .

ووجدت امي العزاء في مصاب الاخرين . قال ابي : انا
لا اصدق هذا ابدا ، هل الورقة مكتوبة بأسمى الكامل ؟؟ دقق
النظر !! وعندما اخبرته بصحة الاسم تحول عني حانقا :

— نترك الارض بهذه السهونة !!

— هه !! حكومة !! قال احد الحضور .

— بلا بطيخ اصفر ! ولاول مرة التمعت عينا ابي
ببشق مخيف .

— ما احلاك يا حكومة وانت ماخذة « خلسة النمر » !!
وكأن هذا اسم قطعة الارض . قال احراش !! مرج ابن عامر
كان « احراش » والناس صلحته .

ودب الليل مقمرا ، وانجوم تشع ، والحشرات المضيئة
تطير هنا وهناك ، لكنه ليل ثقيل وابي يتقلب على الفراش بهدوء
حاسبا انا غفونا ولكني ارقنت انا الاخر وانا افكر في الحقل انذي
زرعنا فيه كل شيء ، كانت امي تعود من الوعر وعلى رأسها
«حملة» ثقيلة من الحطب اليابس وجبهتها تتصبب عرقا وشفتاها
جافتان من العطش وحرارة انشمس تصعد من الارض الساخنة
المشوية ! ومع ذلك كانت في كل مرة تجر وراءها فرعا من شجر
السويد الشائك لتضعه على السياج خوفا من اذى الماشية .

وابي يجمع الحجارة الصغيرة والحصى من الارض ويضعها
في اذبال قمبازه ليرصفها على الجدار . وانا واخي صقر نجح
سنايل القمح قبل ان تصفر وتحصد ونجعلها اصابيم لنعمل منها
فريكة .

وعندما افقت في الصباح الباكر على غير عادة وجدت ابي
قد هيا نفسه ناشطا كعادته وجذلا ، وراح يوقظ اخي الصغير
الى الحقل :

— اين وضعت الورقة ؟قال احدهم لابي ونحن في الطريق
الى الحصاد .

— في جهنم بعيد عنك !!

— ولماذا انت ذاهب الى الحقل !!

قال اخر مازحا في الطريق الى العمل ، الارض راحت!

اجاب ابي بوضوح وثقة : لاننا نحب الارض !!

تمرین فی الدفاع المدنی

ذيب أغرب رجل في البلد ، كل مهنة يختارها أفطع من
الأخرى . يعن على باله فيحضر « حصان الشبا » ويصبح
حديث الناس ومحط أنظارهم . وهو أمهر واحد في خصي
ثنيان الماعز . والعديد من النساء خاصة الأرامل اللواتي
يمقتن الفار ، يربين القطط ويتعبن عليها ويحملنها إلى
ذيب مشتكيات :

— لو « تطوشن » هالبس مالي القرعة كذيب احسن !!
— ليه ، كثير غنبيه ؟ هاتيه تعال تودع . خذ نصيبك .
مالك خايف موجوع ؟ ناو برناو اهدا اهدا !!

ويحرك أصابعه بين رجلي القط وما هي الا لحظات حتى
يروح القط في عالم من الوجود والدهشة يفكر في هذه
القسمة العاطله وهذه المزحه الثقيله من ذيب التي المته
وغيرت نفسيته فصار حالما متصوفا ورعا . وفي لحظة يشعر
بجفاف في عاطفته تجاه الصبايا من بنات جنسه وهو الذي
تحمل الاهوال أيام عزه وكاد يستشهد ببطولة في سبيل ذلك .

ويأتي احدهم بدابة الى ذيب ليحدد عمرها وهل هي اهل
لنقل الحطب والماء وللحرث فيجيب الرجل بأن يفتح شندق
الدابة ويتفرس في انيابها ليجدها على الغالب قارحة في آخر
حياتها وفي الشتاء يتنقل ذيب بين زرائب الماعز يسلم جلود
القطايس ويبيعها . وقد تحولت باحة داره التي لا تزيد عن
مساحة مسكب البندورة الى معرض غريب . تارة يهيء جللا
 ويفصل ظهارة او ينهمك بكشط حوافر كديشة لحدوها ،
وأخرى يكوي عنزة مريضة مرتخية مصابة باسهال تروح
تبعق من قحف رأسها بصوت ممطوط مستغيث من هذا الجحيم

هش تبدأ الاطراف بتقويضه قبل ان يجف حبر الاتفاق على اقامته .

وها هو ذيب يجد الطريق الي ، الى مكتبي انا المحامي ، اول محامي في البلد كالثمرة المبكرة في غير اوانها ، ادخلت الى القرية كئيمات واصطلاحات اعجمية تلوكها السنة الفلاحين دون ان تقدر على هضمها فترميها كالنوى . انا ارتدي بدله بنية بلون الخروب تفصيلها مغرق في الفرنجة حتى الاذنين لم يسبق لاحد هنا ان لبس او حتى رأى — لا البصريه ولا العلمية — مثل هذه الملابس ، واتبعته البدلة بحذاء بني لامع مزهو مشرق على ظهره من الضحك لاهو بالطويل والبالقصر كأحزاب الوسط ، واكملت العائلة الابنية بربطة عنق لا تشتت عن الموضوع ، وبدت لي ملابس متكاملة كالجملة المفيدة اذا فقدت أحد أركانها او نقاطها تشوهت ونقصت ولم تؤد الغرض المطلوب واعجبتي الفكرة جدا .

كان تخرجي من الكلية حدثا صاخبا في البلد وحمدت الله واثنت عليه انه ادى هذا الواجب تجاهي ، ترشقتني نظرات الاعجاب في كل جسمي ، يحفظ الناس عن ظهر قلب موديل ولون ملابس ومكتبي ورقم سيارتي ونوعها وزامورها ، يبدأون بتحيتي بالسنتهم وأيديهم ووجوههم ، استقبل وأودع بدعاء عميق سخي من المفروض ان يستجاب له بعد لحظات .

تفاجأت بما فيه الكفاية ان لذيب قطعة ارض صغيرة لها اسم وموقع راح يصفها ، يصف تاريخها وساحتها ومساحتها وحدودها فاسكتة بنظرة فظيعة ولكنه لم يابه بي . وها هو يأخذ مكانه على الكرسي الجلدي ويتكئ بارتياح وانطلاق على حافة الطاولة اللامعة كالمرآة ، واكمل بأن الدولة تن اسنانها وتراوده على الارض . ودهشت من هذا الامر كيف ان الدولة اكتشفت واحدا مثل ذيب وهي البعيدة كل البعد عن المهن التي يزاولها الرجل وليست من زبائنه على الرغم من كثرتهم ، وكيف انتقل اسمه وملفه من دائرة حكومية الى أخرى ومن

بعدها ينتقل الى ديك بلدي احمر معتز بنفسه لكن أحدهم كسر رجله فتأني صاحبه به فارعة دارعة وكان قامت القيامة ووقعت الندامة تلعن وتسب : اللي ساقها ان شالله يتلقاها في قصبة السمرا . . . تسوى على انعدا . . . وها هو ذيب يجبر رجل الديك بلصقة من السلاح الاصفر المتوفر الكوامسا متشابهة في المكان وعلى الدرب . كل هذه المهام الملقاة على عاتق ذيب جعلت اسمه يتردد حتى في القرى المجاورة .

ولذيب مظهر غريب ابعد ما يكون عن الروتين . لم يلبس مرة فردتي حذاء تجمع بينهما اخوة او قرابة او حتى نسب ، فهما تختلفان في اللون والمكانة والجنس ، فهذه فردة بسطار لم تحافظ على امجادها السالفة وأخرى فردة مشاية لها في الحياة تجر به غنية وصولات وجولات تركت اثارها على اعلاها واسفلها . واحدة بلا لسان وأخرى لها لسان دالع بلا مبرر وقد آلى على نفسه الا يغير وضعه أبدا وثبت على كلامه . واحده برباط من خيطان المصيص وأخرى وضعت حدا وتخلصت من هذه الكماليات والمباهج

— ذيب يمشي مفاحجة والعلم عند الله مقروق من غير معيرة !!

وكيف خلقت عيناه بهذا الشكل ؟ وقد شقط بياض مريض عكر كالكذى كاد يستر البصوص تماما وتفتلت الرموش المعمصة المبللة قصيرة تكاد تختنق . وعلى وجهه تضاريس الارض الجبلية ، تجاعيد وترهل وانحناءات ومنعطفات وتبويض وتواء وتقرع تعايشت مع بعضها في وفاق ولا يمكن ان تصلح لموضع آخر غير وجه ذيب الكالغ المتلطف . وله اشع شنب شوهد أو روى عنه مكشكش متهدل رائخ ، كل شعرة منه ولها الحق في تقرير المصير ، نمت على عاتقها واستلبت حريتها الشخصية بلا تعاضدولا تضامن في هذه المعاصي التي اسمها وجه ذيب . واذا تلاقت رؤوسها فكأنها تنحني لتهمس شيئا في اذان جاراتها بشكل مؤقت فظل يجمعها اتحاد فدرالي

موظف الى موظف ، وتصورت الموظفين المتائقين المتنعمين يهرولون ويكرجون من غرفة الى غرفة وهم يتأبطون ملف ذيب وينطقون باسمه ويتداولون ويدخنون ويشربون القهوة ويتكلمون بالهاتف ويتباحثون ويؤجلون ويطلبون اسمه على الآلة الكاتبة ويرسلون الرسائل بالبريد !!

وها هو بالفعل يوصف بعينه في المكتب وينتشل من جيبه ورقة ذات مصر معتم وهي التي قبعت في الجيب الموجل في عمق الملابس فامتقع لونها كالسجين وبهتت خجلا وغضبا وحياء كالعاشقه المستحيه . وحاول الختم الحكومي المدور على البيكار . . أن يضي عليها مسحة من انكبرياء والجديه لكنه راح في الدوكة ومععمان الدعك فمصر عن ذلك او بعضه وظل قابعا مهملًا مبتذلا وقد أخطأ مكانه ومكانته على الورقة المجلعة المنظوية على نفسها .

وراح ذيب يسعل بنوع من الكماليات كما يفعل المخاطر والوجهاء تماما فلم احتملها منه وهممت ان اوقفه عند حده . ان اطرده ثم عدت عن ذلك حثف انفي .

وذيب للمعلومية وحيثيات القضية بلا اولاد لكنه حط مؤخرا على امرأة او ما يشبه ذلك عليها بعض اللحم المتعجز حتى ان فيه شيئا من البياض الرخو المهلهل كالغيم .

— خايف الارض تضيع . . . وعمتك العم عند الله حيلي! وسوى من جلسته ليأخذ راحته بشكل افضل . قال الله ولا فالك !! عمتي آ! أعوذ بالله من هذه القرابة ، كيف الصقت بي هذه التهمه هذه الجناية ؟؟ وتقرزت نفسي ونظرت السى بدلتي البنيه مواسيا لئلا يعلق عليها شيء من هذه القرابه الداهمه المفروضة فرضا من جانب واحد بلا اي اساس قانوني وبلا اي بند من البنود الفرعيه . ووجدت نفسي استعرض شريعة حمورابي والقانون العثماني لئلا تحوي بندا يوحي بمثل هذه القرابة او يشير اليها ولو من بعيد

فلم أجد . وشعرت بانني ربحت القضية ولا مجال للاستئناف . قال عمتي !! ونظرت الى المكتب متفحصا لئلا تحوم هذه القرابه في ارجائه واسكته متأنقا .

— في جهنم بعيد عنك !!

— عمك تقول اذا لا سمح الله قرب واحد على الارضيات نخط ربنا وراء ظهرنا !! . كنت على وشك ان اصرخ واحتج واقاطع واصدر قرار الحكم بخصوص هذه القضية مع التنفيذ الفوري ، لكنه وضع املمي على الطاولة اوراقا نقدية من كل الانواع والاعمار كالعائله المتكامله فيها الجدد والجده والوالدان والاطفال وكلها مطوية ومكبوسه ومشرتحة ومبقره بارده متضايقة على شفا الاختناق ، لكن ما ان اخذت مكانا على طاولة المكتب حتى احسست نحوها بوداد والفة ، رايت فيها الحياه وانحرمة . وها هي تبص الي باستسلام وكان بيننا معرفة قديمه ثابتة الاواصر فرددت على خطوتها الكريمة بالمثل وجمالتها والتفت اليها بكليتي لفته كريمة من ندى فانا على العهد . ولولا هذا الموقف المحتشم الحافظ لنفحتها ببسة بكل ما في هذه الكلمه من معنى كتلك التي اوزعها لعشر النساء ومسؤولي الحكومه بلا مناسبة وبلا ان يرد علي بالمثل في الحاليتين . وارتدت التقرب الى النقود للتو بلا مقدمات . فلانتظار صعب على العشاق والمحبين ، كان عندي الف باب يدعوها الى الدخول ويستعد لاحتوائها والف طاقة ونبشة ترحب بها ، خاصة وانها ضيف خفيف الظل ما ان تدخل حتى تنهيا لنخروج واهيانا تعرج عن الطريق قبل ان تطأ رجلها عتبة البيت وتكتفي بتوقيع اسمها في سجل التشريفات . فهي دائما على عجاله من امرها ، نذلك تناولتها متكلفا كمن أصيب بوعكة . لكن هذا التكلف تبخر كالغاز مدحورا ما ان اقتربت منها واستشعرت الدفاء والحياه فيها . فما ان مستها يدي حتى دخلت نفسي في طور النقاها بعد الوعكة ومررت كلمح البصر وانتقلت الى فترة الشفاء اتام انا الان امك صحتي وانا ادسها على علاتها بتحبب في حافظتي

وأحس الرجل أنه فقد شيئاً من كيانه ، من نفسه وهو يرى نقوده تفارقه الى الأبد ولسان حالها يقول : اني راحة!!

— طيب !!

هكذا اوعزت لذيب وكان الامر انتهى . لكن هذه الكلمة المجردة اليتيمة الدارجة الصغيرة كالميني والبكيني لا تكفي براى الرجل ولا تطعم وهو الذي سرد كل تاريخ حياته وزن الي البشرى ان عمتي حامل وحدد مساحة الارض وحدودها وتطرق في عرض الحديث الا الحكومة والدولة والمحاكم ووضع على الطاولة حزمة مشعثة من النقود ... لكنه قام متهيئاً للانصراف بغير حماس وطرق الباب بالفة وعنف وكأنه باب بيتهم . وترك في المكتب فراغاً ووحشة أو شيئاً من هذا القبيل . وأدخلتني زيارته وقضيته في انتظار شفاف ، ماذا حدث لي حتى رحت أترقب يوم المحكمة واستعجله !! هل للتخلص ولو لساعة من هذا الروتين الذي يدب في حياتي وعملي !! أكثر من ذلك ، فلم استبعد امكانية ان التقط ذيب معي في السيارة ونذهب سوية للمحكمة ، وها هو قد قرر ذلك من طرف واحد وعن سبق اصرار كأمر بديهي ، وأزاح عن جسمه وملابسه راقية من الاهمال والقذارة والدعك وكأنه يمر في حلم لذيد مترقرق أبيض ، وجلب معه زوجته التي رحبت بالفكره ممتنه ولم تقلب ولا صرارة . وفي الطريق الى المحكمة راحا يتحدثان بطلاقة والفة ووحدة حال وهي تجلس على المقعد الخلفي بشكل ملموس وتأخذ حيزاً ككل الاشياء ، والسيارة تقطع الطريق برشاقة . تحدثوا عن شؤون البيت وقضاياهم اليومية والمناظر على الطريق . وتداخلت وأنا في شبه غيبوبة وخدر ، اسير لانني يجب ان اسير بهما فقط . وفي الساعة المحددة ووجه الحاكم بذيب وزوجته كمركب لا ينفصل الا بطرق كيمائية صعبة . كان الحاكم مدججا من رأسه انى أخمص قدميه بالوقار وانزوانه فشفظته الامراه بنظره متسارعه دائرية اهليجية حائمة . اما ذيب فلقح عليه نظرة متمهلة كاحد زبائنه القدامى الذين يتعامل معهم يوميا بالرغم من الجدية

والهيبه الضاربه اطنابها على وجه الحاكم ويديه وملابسه وجلبابه ونظارته وشعر رأسه المقسم الى خصلات تقسيما هندسياً بارعا دقيقا والمندلق الى الورا بتعننت مكونا علامات « لا » و « تسؤ » تقال بالحاجبين والجبين . ونطق الحاكم باسم طويل متداخل من عدة كلمات واذا بذيب يشهل نفسه ويتناول لها ، وعجبت كيف ان هذا الاسم ينطبق على ذيب تمام الانطباق وكيف يسع مثل هذه الكلمات المكونة من حروف الابجدية كلها ونقاطها وحركاتها وكيف كان هذا الاسم طوال السنين ، طوال العمر في محاق دائم؟؟ حتى ذيب كاد ينساه ولذلك راحت اذنه تتلقفه بحب وشغف وكأنه وجد لفتية ضائعة عزيزه .

ورمقت «عمتي» زوجها بلطف وطبببت على بطنها باثراق وتطلعت حولها باعتزاز واكملت النظرة في وجه ذيب .

— بقولوا اسمك في المحكمة كـ !!

وافهمها بلفتة مجهضة منه ان هذا امر طبيعي ومألوف ومعروف له جيداً ، ماذا حسبت؟! لماذا لا يقال اسمي تماما ككقبة الاسماء؟ هل تشكين في قدرتي ورجولتي؟ ومن سبب لبطنك ان يكبر على هذه الصورة يكاد يصل لحلقك ومن لا يعرفني في البلد وخارجها؟ . أما هي فمن الصعب ان تنظر الى الامر بهذه السهولة فعلى كل حال هي في محكمة وأمامها حاكم وبيتهم اعتاد على سميت آخر في الحياة . أما ما دار بعد ذلك من حوار ملتهب متدفق فكاد يفقدني عقلي ، فهذا الحاكم يتطفل ويتطرق الى التفاصيل ، الى الاعماق ويسأل الرجل ماذا يشتغل؟ وتساارعت دقات قلبي وداهمني ربين ودوار . وراح ذيب يتخلص من الكلمات ويرجيه! على فيالها تسبح في جو المحكمة ويتبعها بكلمات جديدة ويقول ويشرح ويؤكد .

— عمك العلم عند الله حبلي . . . الارض بذار ثلاثسة

مداد ، حلفنا يمين نحط ربنا ورا ظهرنا ان . . .

ويقاطعها بدوره ، تسكته ويسكتها ويبدآن من جديد ، يفترقان ويلتقيان ويجندان الاحتياط من القدرات ويكونان روحا واحدة وجسما واحدا وصوتا واحدا وها هو ذيب يكاد يقوم من مكانه ويهجم على طاولة الحاكم وعمتي تتحفز هي الأخرى ويفلتان كلمات وحروفا مبعثرة مائة تا ان ننجيع وتتحد لتصبح جملا مبددة بتصرف تقول : ارض لنا اه ... دولة لا دولة فمش ... اسلخ جلود ... هاي انا تولد اولد صبي آه حكومة لا حكام لا دولة لا

وغطيت وجهي بالاوراق ، وخفق كلماتهم في ثنايا الالحن المنبعثة من قلبي بشدة وداهمني عرق على جبهتي . وتعزيت جدا بهذه القرابه بين الحاكم المذيعا وكونت كلا واحدا متناسقا ، السربل المخرج وزوجة ذيب ووجدت نفسي وسطا بين الاثنين ، انا المعدل ، انا المتوسط ، انا المخلوط وهؤلاء هم اطراف القضية ، جوانب المعادلة ومتناقضاتها ، واعجبنتني مكانتي جدا ، لا انا يمين ولا يسار . وشرد فكري بعض الشيء !! ينقص ان تقوم زوجة ذيب وتطبق هذه القرابه النظرية بشكل عملي فتربت على ظهر الحاكم وتعاشره وتمازحه وما عليه الا احترامها وتقيل يدها . وهي الامراة اعجبت جدا بهذا المركز - بهذه المنزلة . ورشقت قاعة المحكمة بنظرات باسمية مسؤولة مألوفة . اما هو الحاكم ففغر شذقه من المفاجأة ولواه وطواه وتلمصت منه تكشيرة غطت « بانكيت » وجهه وبحلقة عيناه بعنف تحت النظارة وتجهد القلم في يده ، وصار هو الحاكم بكليته عبارة عن علامة استفهام وتعجب وفاصله وتقطتين فوق بعضهما!! كان كمن يستغيث العدالة واسطر القانون وينوده ونصوصه . تضائل حجمه حتى خفت عليه ان يذوب ، وذيب يتفريس في فم الحاكم كأنه يحدد عمره ومزاجه وهموم حياته . وخيم على المكان صمت مطبق مزغلل . واصبت انا بما يشبه النعاس اردت ان اقول شيئا فابتلعته وتطوعت « عمتنا » عمي وعمة الحاكم والمحكمة وفتحت فمها لأول مرة بصوت مسبوع ، وترددت في المحكمة كلمات معوجة ومضطجعة وحيانا منبسطة عجيبية اغرب من عجائب الدنيا السبع والعشر والعشرين . ورحت أعد في نفسي برج بيزا وسد الصين والاهرام ، ثم استنقلت ذلك ورحت اصغي الى ذيب وزوجته اعجب العجائب وهما يشتركان في هذه المداخلة والمواجهة وتفلت منهما كلمات تقال لأول مرة في المحكمة فيها ... التنيان ، القطط .. والخيل وسلخ الجلود ... واوشكت ان انسحب مذعورا فبقيت مذعورا مكورا على نفسي وقد اخذ مني الدور وكذلك من غيري وجلست كالزكية وثنبت ذيب يقوم ويقعد يشرق ويغرب والزوجة ترفع على الحاكم اصبعها وتقاطع زوجها

بَدْوَح اسَلَب بَدْوَح

لحسن الحظ ان «أنشيوخ حميدو» هو من قريننا ،
اذ لولاه لكانت الامور هنا مربكة للغاية . ورغم انه في
السبعين من عمره ، فالحق يقال ، لا تفوته صغيرة ولا
كبيرة بل يعرف كل شيء . وكونه يسكن في الجهة
الشمالية من البلد لا يمنع ان يكون زواره من اطرف
الأخر . ومن هم هؤلاء الزوار ؟ الواقع ان كل اهل القرية
رجالا ونساء كبارا وصغارا يعرفون بيته وطلبوا مشورته
اكثر من مرة . اقول هذا من حسن حظنا ، اذ لولاه كيف
نعرف في موسم الشتاء ان كنا في سعد ذابح او سعد بلع
ثم عن هذه الاعياد الكثرة مثل عيد لد وعيد عبود وعيد
الصليب ! ! وهو يعرف حسابات الربعية والخمسية
والمستقرضات كانون لصم كما نعرف نحن اصابع ابيد .

ولكن من السخف القول ان عمله ينتهي مع انتهاء موسم
لشتاء فما نحن الان في فصل الربيع وزرع بذور الخضار في
فاخبرها الشيخ حميدو انها موجودة في الجهة الشمالية ،

— الشيخ حميدو يقول اليوم فارغ بلائس تروحوا
تزرعوا . فيعود الناس الى بيوتهم مؤجلين العمل الى
غد او بعد غد او بعده ، واذا صادف واخطأ واحد
الحساب وزرع في اليوم الفارغ فالزرع لا يثمر ابدا بل ان
ازهار الكوسا والخيار والبطيخ والحروث تدبل وتسقط
دون ان تعطي ثمرا ، وكسل ذلك لانها زرعت في اليوم
الفارغ ولم يسأل صاحبها الشيخ حميدو ، وفوق ذلك
تقع العداوة بين هذا الرجل والشيخ حميدو لانه لم
يسأله مسبقا ومعنى هذا انه لا يعترف بعمله ويفضله ، ويروح
الرجل يحلف بالطلاق على امراته انها ليست مقصودة ،
ويكفيه عقابا انه خسر تعب طيلة النهار . ولان الناس
يريدون ان تبقى علاقتهم حسنة مع الشيخ حميدو فهم

يكثر من السؤال ، ويحقق الرجل مع زوجته اذا سألت الشيخ وماذا قال لها بدقة متناهيه ، لان النساء هن اكثر من يسأل عن هذه الامور .

ويقولون ان وجود الشيخ حميدو قضى على الحرامية واللصوص في البلد ، لانه ما من سرقة تسرق الا ويعرف موضعها حتى ولو كانت في جبل «قاف» ، وقبل مدة ضاعت عنزة «رتيبة» الارملة ، العنزة البيضا الشامية المقاتي قائم على قدم وساق فقط قبل التوجه الى الحقول للزرعه يجب سؤال الشيخ حميدو ان كان الزرع اليوم «فارغا» او «ملانا» ، وكل واحد من القرية يدث الخبر الشافي لجاره او قريبه وفعلا بعد التفتيش وجدت بقاياها هناك بعد ان ذبحت واكلت في الوعر ، وهو يقول انه يعرف النصوص ايضا ولكن خوفا من وقوع خلاف بين الناس فلا يذكر اسماءهم بل يكتفي بتعيين الجهة الموجودة فيها السرقة .

اما ما حدث لي شخصا مع انشيخ حميدو فيختلف عن ذلك نوعا ما ، لان مشكلتي ليست في فقدان عنزة شاميه او بلدية ولا في زرع الخضار ، المشكلة هي في اني افتش عن واحدة احبها من بين صبايا القرية ، وتعبت كثيرا ولكن دون جدوى فكل الفتيات «مضبوبات» الى درجة كبيرة ، اما اصدقائي فيقولون انهم «صاحبوا» عن يد الله ويد الشيخ حميدو ، كيف ؟ ! هذا سر لا يبوحون به لاحد . وصديقي سامي يلومني ويسخر مني كيف لم اجد واحدة حتى الان وانا ابن الخامسة عشرة وبلغت مبلغ الرجال وانه هو الذي يصغرني بأربعه شهور يرتع في الكيف :

— احنا مهبصين !! هاي المناديل والمحارم شوف !!
وشعرت بالحسد والغيرة وهو يريني منديلا اصفر بلون الزيت تفوح منه رائحة العطر والكالونيا ، وان صاحبت دقت له شامة في ظاهر يده بالابرة والفصم .

— تعال معي على طريق العين لترى بنفسك . ودفعتني الفضول لاوافق في الحال ، وخوفا من فوات انفرصة لم افارقه من ظهر ذلك اليوم .

— انت تقعد تحت التينة البياضية وانا على الطريق ، ممنوع تتحرك !!

وقبيل المغرب نزلنا سوية الى طريق العين ، وكانت ريح شمالية تهب بقوة وتثير الغبار والفتش واغصان التينة فوقي تخرج حفيفا قويا وبسبب ذلك لم اعد اسمع وقع خطوات الفتيات على طريق فاضطر الى رفع رأسي قليلا للالقي نظره متفحصه حذر فأجد سامي يفرك عينيه من الغبار ويمسد شعره بيده ولكنه ما ان يراني حتى يوميء الي غاضبا ان انبطح فاذعن لطلبه حاتقا .
ومرت فتاة في العشرين من العمر تحمل على رأسها جرة ماء ، تلهث وهي تصعد الطريق الصعب ، وتسارعت دقات قلبي ولكن قبل ان يصل اهتمامي الى الاوج كانت الفتاة قد مرت دون ان الحظ شيئا ، اما هو فقد قفز من فوق جدار الكرم لاجده بقربي مندهشا :

— هل رأيت كيف غمزتها ؟ ؟ وحركت رأسي لاعبر عن النفي القاطع

— ايه !! ما بتصدق !! وهي غمزتني . كل يوم الاقيها على طريق العين .

اما انا فبقيت صامدا في موقفني لاني فعلا لم ار شيئا وعلت ذلك لاني كنت منبطحا على الارض كما اراد .

— يعني انا كذاب !!

— يا أخي مش كذاب بس أنا لا شفت ولا قشعت !!

— عمرك ما تشوف . ايش بدي اعلمك اذا كنت واحد بارد ومجنون ؟ وابتلعت الاهانة وافترقتنا على فص كما يقولون ، ولكن ان يقول لي باردا مجنوننا فهذا كثير ، وهو يعلم اني كنت صاحب المبادرة في كل السرقات التي قمنا بها قبل سنين . كنت اسطو على اللوز والمقاتي كسبع الغاب وهو يكتفي بهراقبة الطريق لانه لم يكن يجرؤ على السرقة وشعرت بحاجة ماسة لان افعل شيئا واثبت رجولتي . طلبت خمس ليرات من امي بغضب وبطريقة لا تتحرك مجالا للرفض او للتردد ، واخذتها بعد كثرة وتنفيخ وامي تقول : يقطع المصاري كك بالوعة امبارح اخذت نص ليرة !!

كنت وانا في طريقني ابي الشيخ حميدو كمن يذهب لتسلم وظيفة محترمة ، وقبل ان اطأ العتبة تحسست الورقة في جيبني فوجدتها تنتظر وتخرج قرعة لانها جديدة فزادت قيمتها عندي وتوسمت فيها الخير . ورفع الشيخ نظره عن الكتاب والنظارة البيضاء على عينيه ، ولان نظره كان شحيحا فقد راح يتفحصني بدقة واناة .

— اتعدد عمي !! اما هو فتابع القراءة الصامتة ، وبعض الكلمات تخرج بصوت مسموع كمن يخاطب احدا . وتذكرت اول مقابلة لي معه وانا صغير مع امي ، كان ذلك عندما فقدت بقرتنا المنورة وعندها فتح الكتاب ونظر فيه طويلا وبدا يصرخ :

— البقرة المزهره وبين موجودة ؟؟ واصاخ السمع كمن ينتظر الجواب .

— هاها . . . طيبة ولا ميتة ؟ . . . كيف ما بتعرف ؟؟ والنعم من الله . . . لا اله الا هو

البقرة يا اختي موجودة في الارض الغربية روحوا وراها بتلاقوها . ولكن عندما عاد الرجال من الوعر يومها وابي معهم لم يجدوا البقرة وقر رأيهم انها سرقت وبيت لاحد الجزائريين .
ترك الشيخ حميدو الكتاب مفتوحا ونظر اني مرحبا :

— نعم عمي خير ان شاء الله ؟؟ وخرجت من فمي ضع كلمات قلتها بخجل وانا انظر الى الارض ، وناولته الخمس ليرات فاخذها بفتور وبدا عنيه انه لا يفكر فيها ابدا ثم شجعني ان اتكلم بلا خجل وان الزواج تسمية ونصيب كامر الموت ، ولكن السعي والوساطة ليست منكوره ، فافهمته القضية ، وقطب وجهه وهو ينصب ثم اعاد النظر في الكتاب ، وسألني عن الحرف الاول في اسم الفتاة التي ارغب في الزواج منها واسم امها .

— ف. ر .

واخرج ورقة من جيبه وراح يكتب . وناولني شيئا ملفوفا في ورقة اخرى قال انه بزر برش وبدا في التعليمات ،

كان علي ان ارش البرش على الارض حيث ستمر الفتاة ، ويكفي ان تلمح الورقة التي ساحتفظ بها في يدي اليمنى وقد كتب فيها بهذا : «بدوح اسلب بدوح على قلب ف» وقال لي ان هذه الوصفة تنطبق فقط على اول من يرى الورقة ويدوس على بزر البرش حتى على البهائم والمواشي !! وشعرت بضيق وارتباك من هذا التعميم واذا ، لا يمكن ان تكون طريق العين او البيادر ملائمة لذلك لان الدواب والمواشي هناك اكثر من الفتيات .

ورحت اتحين الفرصة الملائمة ، امضي الساعات الطويلة في الطرقات والازقة وحر تموز على اشده وانا مضطر الى لبس الجاكييت لان قميصي بلا جيب وعلي ان احتفظ

بالورقة والصرة في الجيب . واهلي واصدقائي يتساءلون : ماذا لي في الدروب طيلة النهار !! لكني لم اعر هذه التساؤلات اي اهتمام فهم لا يعرفون شيئا مما تجب معرفته . وفي عصر احد الايام رايتها ذاهبة الى الكروم وحيدة ، كدت اطير من الفرح وانا اغنل نفسي بالصبر ، ساعة من الزمن وينتهي كل شيء ، سأبذر حب البرش واجعلها تلمح الورقة . . يتبع ذلك فورا كما يقول الشيخ حميدو انها ستتبعني الى حيث اريد وتستجيب لكل ما اطلب ، سوف تموت في حبي ولا تقدر على فراقني ، وتخيلت نفسي اداعب شعرها الخروبي الطويل واشبع وجهها بالقبل ثم سأزوجها . . لم لا؟؟ واذا عارض والدها سأعمل له ورقة اخرى عند الشيخ حميدو ، ما أسهلها من طريقة هذه البدوح اسلب بدوح وبزر البرش .

وشعرت باضطراب ثقيل وانا اهيبء نفسي للقضاء ، اخرجت الورقة والصرة وهي تعود من الكرم بعد ان طرحت قفة الكناسة . وبطريقة خفية وبحماس بذرت ما في الصرة على عرض الطريق بعد ان تأكدت من خلو الطريق من المارة والمواشي ، وطردت قطه كانت تجلس تحت الطريق بعيدة على جوار الكرم فولت هاربة مذعورة . وبارتباك فتحت الورقة ووضعتها في اليد اليمنى والفتاة تنظر باستغراب ودهشة ، وانا متأكد من ذلك ، وداست على بزر البرش تماما وانتظرت بقلب خافق . . ولكنها مرت بسرعة بعد ان طرحت علي الوقت . . وادارت ظهرها مولية وانا مشدوه ، لا يجب ولا يمكن ان تمسر الامور هكذا !! شعرت بانكسار وتخاذلت وقررت ان اقرأ بصوت عال : بدوح اسلب بدوح . . .

والفتت هي الى الى الوراى ونظرت بدهشة ولكني لم اقل شيئا ثم تابعت طريقها وانا انظر الى بزر البرش على الارض وامسك الورقة باليد اليمنى واكرر : بدوح اسلب بدوح !

العالم

مرت الفتاة تلميذة الصف العاشر بنظرها على لائحة
الدروس اليومية ، كانت وافرة متنوعة ، ولا بد من
ساعات لإنجازها ، وستقوم بذلك حتما كما اعتادت ،
فليس واردا بالحسبان ان تسبب لوجه المعلم الطافح
بالبشر والامل والحب ، الانقباض والعبوس ، ولا تريده
ان يوزع عليها نظرات الدهشة والتعجب ، رافعا حاجبيه
معانبا لامسا مداعبا لاقل تقصير ، لاقل خدش في الواجب
المدري ، اكثر من ذلك فهو يرغب ويقصد الربط بين
الواجبين المدرسي والوطني ، فالاول جزء لا يتجزأ
من الثاني كما يقول ، ويثبت ذلك بحماس ، وايجاز
مقنع تماما كتطبيق المسائل الهندسية ، والتلاميذ يخلقون
بحركة رؤوسهم علامة الايجاب والموافقة .

لكن ذلك الشيء الموضوع بعناية في ركن الغرفة له
شأن آخر هذه الليلة ، وله رهبة يخفق لها القلب على
الدوام ، وتحس هي ان لديها طاقة هائلة توشك ان
تتفجر وتثور . اثاث الغرفة كله ملتفت الى تلك الناحية ،
الكتب والحقيبة ، لوحات الرسوم والخطوط والآيات . .
وكذلك النجوم المشعة عبر فرجة النافذة والتي ظلت
تختلج كمن تصفق لذلك الشيء ، كمن تدعوه ليأتي
اليها ، ليقطع المسافة بينها وبينه :

— قم !! امش . . . طر . . . تحرك . . . ارتفع !!

واهتزت الفتاة ، قامت ، مشيت ، طارت . . . ارتفعت
واحتوت بنظرها ارض البيت والسقف وانزوايا والجهات
والنجوم ، صارت كل هذه لاشياء شيئا واحدا معه ،
هي هو وهو هي . . . وشحن خفقات قنبا جو الغرفة
بدفء وعزم ، انصهر كل شيء بالواجب ، صار الواجب
كل شيء .

المساء الربيعي يتقدم وهي مشدودة الانتباه والاحاسيس متحركا ومحركا حتى تؤديه !! وهو واضح كفلق هذا كوتر القوس المهيا للانفلات ، وفي العالم تموجات لاغطا وآلاف الاصوات والمقاطع والحروف تسبح داهية هائما كبهار الشمس في سماء المدينة الكبيرة والارض نفلي ترجع في الليل صخب النهار المتداخل المرتعش مع فواصل من الوجوم والترقب كتلك التي تتبع فعل الامر الصارم القاسي للاقدام على عمل ذي بال . . كل ذلك وتراب القبور البارد الموحش المهجور ، في لفظ الاولاد امتداد وقوة استمرار لدائرة صغيرة لحركة بسيطة اسمها وترايم الامهات ، في خفقة ضوء ينطفئ على عاشقين تذبذب في ثناياه تعففة المجنزرات والطلقات النارية وخطوات الجنود وكل المعالم الدخيلة المقافزة التي تحاول الالتصاق بهذه الارض لتأتي هي الارض تجهد وتصر لقتنها بعيدا كما تتقي المعدة الطعام الفاسد لتعتدل وتنسجم .

والفتاة جزء من مجموعة عليها القيام بالعمل هذه الليلة ، هي الفعل ورد الفعل وتاقت لحي زملائها ، وفيهم المهواشس اللفظ الشرس ، والنجيب الذكي والهادي والعادي والمترفع بعض الشيء ، لكنها خلطت هذه الصفات معا ورجتها في مخيلتها بارتياح ورضا لتكون مركبا ودودا مستحبا .

نلتقي وننفذ وبعسدها يتكرر المشهد اليومي ، حجارة عصي ، نار مطاردة متبادلة ، صراخ وهتاف ، اشتباك واكمال المشوار . . كلالم يكن المقصود هو القاء قنبلة ولا زجاجة حارقة هذه المرة . . وسرحت لحظات في عالمها الشاب المتحرك المندفع على الدوام ووقفت عند الصوت والشظايا والمفعول ، الامر اليوم غير ذلك . الحياة ، وتسارعت دقات قلبها ، تكلمه بسيل من الكلمات الليل يحبو كعجوز ، ومرت في ذهنها صورة فظة لبناية المدرسة . . ساحتها ، غرفها ، الحوار بين المعلم والتلميذ ، والجرس المنادي لا يكل ولا يمل . . وعلى قرع الجرس تواعدوا وانفقوا على كل شيء . . هكذا فجأة في ثناياه ، كيف اشرح ذلك تماما ؟ انه شيء من فهموا من نداء الجرس المتواصل الميتور ، وتجسم في ذهنها الامر اليومي في اللغة العسكريه لم تسمعها ثيابها فغطى صدرها بحب والفة ضمها كحضان الام ، وزاد يقال بالحروف والكلمات ، لم يلق من مكبر الصوت ، لكن ارتعاش قلبها فحفق هو الآخر فوق دقات قلبها ، له دوي داخلي عميق كالوحي لا يرحم يظل قاحما كعرق حي ينبض ، صارا شيئا واحدا مندغما لا يتحل ،

واستسلمت لحظات لملمسه ، كالدغدغة كالشيب الليل حالك ، ونفث سواده كما تصوروا عيون
والنملق . . . وبالحاح عظيم كالامر المقدس .

انفضي !! قوموا !!
تود لو تغفو فتسري في روحها موجة من التحف

والنهوض والاداء ، تود ان تتحرك فيمسكها حنين ال
اغفاءة معه ، ان تغمض عينيها فلا ترى سواه !! ل
كيف !! يواجهها الموت ، موت الكثيرين ، تمر ام
مخيلتها نهارات معتمه دخانيه حرائقيه ضاجة مختلطه
دبابات تحبو في الطرقات بصرير مرعب ، زرعت غرب
ويتما ، كسفت مدينتها بلطخة عار وهي تنتفضر
للتخلص منها ، خسف قمرهم بالجريمة وظل يشع مطمئ
بالتخلص والتفوق وهي انطفلة ماذا تعي من كل ذل
قبل سنوات ؟؟ كل ما تذكره انها احست فجأة بالبارود
بالفرقة ، بوجوه غريبة ، بالخراب ، عبس كل شيء
وقطبت الوجوه ، كثيرون خرجوا ولم يعودوا ، لاول مر
ترى الكبار ينتجون كالصغار وفي اصواتهم كدمات
ووقفات . وقل عدد الجالسين حول مائدة الطعام
وانكألت الالعب مرمية ، ومرت فترات طويلة دون ار
يحل العيد كالعادة ، وظلت ملابس بلا استعمال ، وغرف
فارغة وتشوهت الجدران وواجهات الحوانيت . . لم
نطلق السيارات صفيرها بانشرح بل صارت «كتابوت»
متحرك ، وخافت من كلمة الاحتلال الذي صار لطفة فر
شمس حزيان .

ايك نرفع وشريط الخيانة ننزع !!
وتقدم الفجر حالا بلا مقدمات ، وقد أخذ العمم مكانه
اشتمل شيء في صدرها وارتفع ،

ها هو يطل على الارحاء والانحاء ، ومع خفقاته تخفق
كل البناية ، اهتزت وماجت تقدم التحية ، وهذه صفوف
البيوت في وقفة استعداد واستنفار ، ورفعت الفتاة يدها
محبية . . كان عاليا جدا ، اعلى من كل شيء ، وفي

الحال تنادي نسيم الصبح الربيعي فخلق مع النسيم
وتموج كالبحر وبرزت تلافيف دقيقة كتلك التي تكونها
ابتسامة امل على وجه وسيم ، وداعبه الشروق فتورد

احضرتهم كل شيء !!
نطقت الفتاة بدهشة كمن تلحق نفسها وتتخلص من هذا
الافكار المعلقة .

المعصا على جسدي تحت انشباب ، والمشي معها ليس
تظل يدي في جيبي اقبض عليها !! حكي
الزميل بمرح تمثيلي .

هي ان الارض الحامل تحط حملها ، تلد بعد انتظار

فزغردت زغرودة مترقصة مرتعشة هيفاء مشوقة بلا
ترهل ، وخرج الناس من البيوت فراوه في مكانه الطبيعي
وكبرت الزغرودة حتى اصبحت تتدافع من كل أرجاء
المدينة ، صارت تتدفق في نهوض انيام وترقيص الاطفال
ويدها مرفوعة تحيي ، واختلط كل شيء ، الهتاف
والنشيد ، وحدثت جلبة مفاجئة نشاز في لغتها وحركتها
واتجاهها ووجودها . كانت ثلة من الجنود تنظر ببلاها
وخوف الى اعلى البناية ، وكم بدت منخفضة واطنة تلك
العيون بالنسبة له هو العالي المرفوع ، هو يسمو ويخفون
وهي تنحط وتتقافز حتى صار الفارق هائلا لا يصور
وانفلت ازيز الرصاص ، وجسم غريب يصد صدرها
وشيء يتكسر ويتحطم ويتمزق ، وصرخت هاتفة مرفوعة
الهامة والقامة واليد ، واختلجت شفتاها كمن نتساعده
هل قامت بالواجب ؟ ولوحت الجوع لها وتدافعت دموع
الفرح ، وانثقت من صدرها سيل احمر واجه حمرة العلم
ووقع نظرها عليه مرفرفا له صوت النبض الحي ، وفي
البعد لاحست خضره القمم واختلطت بخضره العلم كشي
واحد متصل .

اما الجو فراح يعتكر في نظرها ، اسود بما فيها
الكفاية ، راحت تترنح لترتمي ، لتسقط ، وخفق العلم خفقا
متسارعا وزغلل نظرها وتراوحت الالوان سوداء وبيضا
تلاشى نظرها وكبر العلم ، صارت تراه يغطي المدينة ،
واختلط بالبيوت والمدرسية ودخان المعامل الملوث
والساحات ، كابت تضيع رؤية اي شيء ، صار العلم
عندها يغطي الجبال والمحيط والابعاد والافق ، وكون صورا
مألوفة تحملها في عنقها ، نظرت اليه بكل ما اوتيت
من قوة ، وتكلمت الجموع ، وخرس الجنود في سمعها
واستجمعت ما تبقى من حلاوة الروح لتبتسم . . . لهذا
العلم الكبير . . . كان آخر ما رات ظهور الجنود وصدور
الجموع ، والعلم يكبر ويلفها ، كان اكبر من كل شيء
كان اعلى من كل شيء .

استقبال الحاكم

بحسب ما يقتضيه عملي فسي الصحافة ، رحت انتظر
سيارة تقلني الى هذه القرية ، كانت محطة السير مفتوحة
برشقها اثيريح من كل الجهات ، و تنف الغيم تمر مسرعة ،
بنقاط المطر تتسلل الى وجوهنا . .

وكان العصر شديد البرودة، والمحطة مقفرة من المسافرين
والسيارات تمرق مزمجرة مطرطشة الماء على شكل نوافير
من تحت العجلات الفرقة ذات السواد اللامع .
اخيرا ، وبعد انتظار اخذنا امكنتنا في سيارة عتيقة ملئت
ارضها بمواد البناء . وعلى ملابس الركاب لطخات من الكلس
والاسمنت وصدا الحديد ، يفركون ايديهم المحورة الخشنة
فيسمع صوت جاف غليظ .

كان الطريق ضيقا غرقا تحف به الاشجار الوعرية، وحصى
الاسفلت ينتعف مسمعا طرطقة كحب البرد . والرييح تلسع
وجوهنا وتلعب بمشمع السيارة . ولم تظهر بيوت القرية بعد

ولهذه القرية حكايات في اذهان الناس حولها ، والمتنذرون
والمتفكرون يجسدون فيها مادة لنكات وحكم بالغة .

مرة بذروا بعصر الجمال حاسبين الارض ستبيت
اجالا ، وان احدهم ربط حماره في سلم الباص الواقف
للجميع الركاب .

وان اهلها ظلوا يتعاملون بالعمله الفلسطينيه ولم يسمعوا
ولم يعترفوا باحتلال الجليل سنة ٤٨ . . . وهم يتقبلون
ذلك بطيبة ولطف ويردون الصاع صاعين .

المزيد من اللباقة والالفة وهو يرى جموع الاهالي تخلف
لاستقباله . وراح يحي الشيوخ بخضات سريعة من رأسه
وهم يبشون له بحرارة . واعجبته حالة الطقس ،
والجبال الخضراء ، والهواء النقي ، ونظر الى الأرض
المزروعة باستقهام وكأنه يريد أن ينطقها ، أن يكلمها
بلغته ، وزفر بعمق ، وكان على وشك أن يعاتبها
بحنان

أما الأرض كما تخيلناها فكانت تضحك لنا ، كانت
تضحك للفأس والجدان ، ولم تفهم الا اللغة التي نخطبها
بها نحن ، وقد تكون اللغة حبة عرق من صبايا البلد ،
أو نهرة على فدان من حراث او سياج يمنع الاذى عن
الأرض .

ورأيت الغزل والحب في نظرة الأرض الى اهله ونظرات
الاهل الى أرضهم نظرات الوفاء والاخلاص والبقاء على
العهد

واندفعنا نحو الحاكم ثلثة من الشباب

— وحياة راس سعادتك لا تصل البلد الا على
الاكتاف ! واعجبته هذه النخوة ، ولكن

. . . . ونظر الى الطريق الوعري الطويل الممتد
وقبل أن يحتج أو يرفض ، رفعناه على الاكتاف .

وجر أحدهم الفرس بلا فارس ، فمشت غير معتادة
على هذه المعاملة .

والتقت عيوننا حول جسم الحاكم . وخلقنا بسمات
صفراوية ذات معنى ونظر الجميع الي بتعجب .

كانت الأرض المحروثة المسهدة تستقبل زخات المطر
بشوق وفهم . والزرع في بداية نموه ، قد بدا يعطي الأرض
لونه الأخضر الهش ، والقرية ! ! عبارة عن بيوت متزاحمة
متلاصقة تتوسطها بركة ماء عكر ، فيها رائحة الأرض
والتبغ المعلق كبوشا في السقوف ، فيها رائحة القمح
والروث والمواشي ودخان المواقد ، وطرقاتها الموحلة
مرشومة بدعس الدواجن والطرش ، وفي بيوتها اطباق
القش الملونة ، واهلها ينظرون الى الزوار باللباس
الافرنجي نظرة تحفظ وتساؤل ، وكذلك الى الأوراق من
موزع البريد ، والى الاوراق بشكل عام .

— هذا الطريق تتغندر عليه السيارات اليوم ، لم يفتح
بهذه السهولة ! ! قال الرجل ذو الشارب المتوسط المتهدل ،
وتفحص بنظره مدى اهتمامي بالموضوع .

يومها قررنا دعوة الحاكم لزيارة ابلد . كان ذلك
قبل سنين ، في الربيع ، وجاء الربيع حارا لانحسا ،
واخضرت الجبال وازهرت اجباب الغوردة واينعت ،
وقست اشواك السويد ويبست رؤوسها ، وخشنت
اوراق السنديان وجرشت .

هكذا نحن — ما ان يقول احدنا رايًا صائبًا حتى
يصبح راي الجميع ، واستعدت البلد لاستقبال الحاكم في
اليوم الموعود في آخر الربيع ، وهيانا فرسا اصيلة
له ، فلا شارع لبلدنا ، وبالنسبة لعدد منا نحن الشباب
كنا نعلم أن الفرس لا لزوم لها .

ووصل الحاكم ومرافقان الى بداية الطريق الوعري
للبلد وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة بنت ساعتها . وظهر

واظن اني فهمت نظرات الشبان ، وفهموا من نظراتي
ما حدث في القرية قبل سنوات : لم يخيم الحزن فقط
على البيوت المتجاورة ، بل شيء غير الحزن كذلك . . .

كان الطقس شتاء ، وقبع الناس والمواشي في البيوت
الدافئة ، ولطيلة ايام ظل المطر ينهمر والجار لا يطل جاره
كما يقولون .

فجأة بدأ الاطفال يموتون ، ومرض الجدري يغور في
جلودهم وأجسامهم حتى يقضي عليهم ، والطفل المصاب
يستكين بلا حول ولا قوة ، يرتمي في الفراش رخوا يتألم
وينقل نظرات مكسورة مستغيته مودعة في الأهل والدار
ثم يتلوى ويلهج ويفارق الحياة .

وما ان يكمل الناس مشوارهم وراء تابوت طفولي
يواري في التراب الموحل ، حتى يعلن عن موت طفل آخر .
والامهات يرتمن على اطفالهن الأحياء بجنون لحمايتهم
من المرض والموت .

وفقدت القرية السمة والفرح لأيام طويلة ، وعبرت
نظرات الناس عن ذهول مخيف ، وخفت صياح الأطفال
وفقد آخرون اترابهم فجأة ، ووجدوا انفسهم في غربة
مريعة وغير مفهومة . واذا حطت بومة تائهة على
شجرة الجوز العارية ينتظر الناس موتا جديدا ، واسكت
الناس كل كلب يجوح بصوت محطوط الاكتفاء شره وشؤمه ،
وصار صياح الفراريج المترجرج ممقوتا . اما الرجال
فقد نكسوا رؤوسهم وعلى وجوههم رقعة الغضب والقهر
والتلبك .

والتقت عيوننا مرة اخرى حول جسم الحاكم ،
وخلقت بسمات ذات معنى . ونظر الجميع الي بتحبب اكثر
هذه المرة .

وفي مكان ما عرشت اغصان السويد والسندبان
فوق الطريق ترسل اشواكها الحادة التي استدقت كالابر .

وتراوحت امام مخيالاتنا صورة الاطفال العشرين
الذين كان البلى يدب في اجسامهم تحت التراب ، حيث
تهرات ملابسهم الملونة ، وكتت شعورهم الطفولية وتشوهت
ايديهم الصغيرة المحببة ، وداهمني غضب دافق ، وشعرت
بيدني يرتج ، وبشيء في داخلي يصرخ . . . فهتقت :

— همة يا شباب !! حملنا غال عزيز !! ارفع !!

ورفعنا الحاكم بقوة وانجردت اشواك السويد
والسندبان على وجهه ، وسمع لذلك صوت مألوف ،
ومرط شعر رأسه الخفيف وانتعق ، وخلقت على وجهه
خدوش وخطوط متشابكة متعرجة .

واحتج هو وبلعط بيديه محاولا الافلات ، وحرك
رجليه ، ولكننا ثبتناه اكثر ، وهذه المرة تألم من شدة
قبضنا عليه ، ولكن الطريق طويلا وكانت القصة طويلة . .
ولم تعجبنا نظرات الحاكم الى الارض ولا اللغة التي
تكلم بها وهو يحاول ان يحتضنها ، وتذكرنا كيف كنا
نطير ونطرد البومة الجائمة لنبعد الشؤم عن البلد .

وجهد أحد مرافقيه لانهامنا بانزاله ، فاعتبرنا ذلك
يحط من قدره وحظوته عندنا ، وان هذا من واجب الضيافة
عندنا ، وكانت الدرب غشيمة عكسة ، فيها الصخور
الناتئة والحفر ، ووقعنا دفعة واحدة في احدى الحفر ،
ولكننا حرسنا الا يقع الحاكم ، والا يفلت من ايدينا ونهضنا
بقوة اكبر ، واطلقنا العنان لحناجرنا نردد المحورية بحماس ،
ولم نعد نحس بما حولنا ، ولم يعد يهمنا الاسلامة الحاكم ،
ونحن تارة نقع ، واخرى نخبط بحجر ناتئ وثالثة تحف
بسعادته اشواك الطريق ،

ووصلنا مهتمين مخضضين ، ولطخت الصفرة
الضيف الغالي ، وكان كمن يريد أن يتقياً .

عندها ، شرحنا له مأساة الاطفال ومرض الجدري
وانه لا يوجد لبلدنا شارع ولا طبيب ، وان حضرته بعد
هذا المشوار اصبح سيد العارفين بخطورة ذلك وضرره .

وفلتت الشمس نورها على الارض والجبال الزاهية
وعندما صمت سعاده مشدوها مدعوكا ، رحنا نكون
لانفسنا ولقريننا ، اسطوره اخرى سمعه جديده ترسخ
في اذهان الناس وتتعايش بسلام مع الفكاهات والاحاديث
والبعيد اساطير من نوع جديد عن بلدنا والطريق والارض
اللاذعة التي يتناساها الناس حولنا ، ويحفظ القريب
المكتملة .

الجَمَلُ

